المَوتُ عِندَ الفَلَاسِفَةِ المَادِيِّينَ

د. غيضان السيد علي[1]

ملخّص

يَدور هذا البَحثُ حول رؤية الفلاسفة المادّيين للموت؛ حيثُ نَظروا إليه في ضوء مذهبهم العام الذي يرى أنَّ الكونَ مُكوَّن فقط من «المادَّة»، وأنَّه يُمكن تَفسير كلّ الظَّواهر العقليَّة في ضوء مُصطلحات ماديَّة، فانطلقوا في تناولهم للموت من موقفهم الرافض لـ«ثُنائيَّة الوجود»، مـع الإصرار على الانطلاق من مفهـوم «الواحديَّة الماديَّة» فكان طبيعيًّـا أن يَضيعوا في تِيه الماديَّة، وهذه نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لمحاولة تفسير ظاهرة ميتافيزيقيَّة بحتة كالموت من خلال آلياتٍ ماديَّـة صِرفة؛ إذ انتهوا من بحثهم هذا إلى قفزات متسـارعة، رأوا فيها الموت نهايةً للوعي، وقذفًا بالإنسـان إلى العـدم والفَناء، مع إنكارٍ تامّ للخُلود في حيـاة أُخرويَّة، اللَّهم إلا خلود الذكر-عند بعضهم- للعباقرة والأفذاذ من بني الإنسانيَّة، متمسّكين في كل ذلك بالعلم الذي أثبت في النّهاية تهافت تصوُّراتهم وسقوط مزاعمهم.

الكلمات المفتاحية:

الماديَّة، الموت، ثنائية الوجود، الواحديَّة، ماديَّة الرُّوح، العدم، الخلود، خلود العباقرة.

١ - أستاذ الفلسفة بكلية الآداب – جامعة بني سويف – جمهورية مصر العربية

مُقَدّمةٌ:

تُعدُّ دراسة الموت من أهمّ الدّراسات التي تناولتها الفلسفة، باعتبارِه من أهمّ المُشكلات التي تُواجه الموجودَ البشريَّ. وقد ارتبطت الفلسفة بالموت لدرجة أن ذهب بعضهم إلى تعريف الفلسفة بأنَّها: معرفة الموت، وأنَّه بدون الموت لا يُمكن للبشر أن يتفلسفوا. وقد وَجد مفهوم الموت اهتمامًا كبيرًا من الفلاسفة، سواء أكانوا من المِثاليّين أم الماديّين منذ أقدم عصور الفلسفة وحتى عصرنا الرَّاهن. وقد أخذت مُشكلة الموت منحىً خاصًّا عند الفلاسفة الماديّين؛ الذين راعهم الموتُ بوصفه لغزًا لا يُمكن حلَّه، يملأ النَّفس بالخوف منذُ لحظة الوعي وعلى امتداد حياة الإنسان؛ إذ يقول أحدهم: «لقد وضعت أُمّي توأمًا ... أنا والموت»؛ فالموت عندهم سقوطٌ بلا نهاية في نفق مُظلم، ورحلة ذهابٍ بلا عودة، واختفاءٌ وجوديٌّ تامٌّ يتلاشى فيه الإنسان ويتحلَّل ويَفنى، وأنَّه لا شيء بعد الموت سوى العدم المطلق، لتُصبح قصة الإنسان في هذه الحياة مجرّد أرحام تَدفع وأرض تَبلع. ممَّا أنتج لنا فلسفةً -تسود اليوم في الغرب المعاصر- يَفتقد فيها الإنسان بوصلته، ولا يدرك ما الغاية من وجوده، وما هو مصيره بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضيّ. الأمر الذي يُؤدّي إلى سِيادة العبثيَّة؛ حيثُ يتصوَّر الإنسان أنَّ العالم لا معنى له، وأنَّ الصُّدفةَ العمياءَ تتحكَّم فيه، وأنَّ الموتَ ليس سوى فَناءٍ مَحض وعدمٍ صِرف، وأنَّ الخُلود المُمكن الوحيد -على أفضل الأحوال- هو بقاء ذِكر العباقرة والمشاهير من أفذاذ الإنسانيَّة، وهو خلودٌ مؤقَّت مهما بلغ مداه الزمني، وهو الأمر الذي لم يُرضِ غرور المادّيّ المُوغِل في الماديَّة الفرنسي (كيفين أوريجان - Kevin O'regan)، وراح يفترض أنَّه بالإمكان تحميل شخصيَّاتنا على حاسوباتٍ تجعلنا نحيا حياة افتراضيَّة بعد موتنا، وهكذا يبقى الوعي بعد الموت، وهذا هو الخلود الوحيد المُمكن الذي يتطلَّع إليه إنسانُ القرن الواحد والعشرين.

ولكي نقفَ على التَّفاصيل الدقيقةِ الَّتي عالج بها الفلاسفة الماديُّون مسألة الموت، وعلى

شطحاتهم العجيبة على مر تاريخ الفلسفة الممتد عبر ما يزيد عن ستَّة وعشرين قرنًا من الزمان، يجب علينا أوَّلًا، تحديد المقصود بالفلسفة الماديَّة، ومن هم أشهر فلاسفتها؟ وكيف عالجوا مُشكلة الموت؟ وما هي أبرز التَّمايزات بين آرائهم المُتعدّدة؟ وكيف بدت رؤى هؤلاء الماديّين وتفسيراتهم للموت عبر عصور الفلسفة المُختلفة: القديمة، والحديثة، والمعاصرة؟

أَوَّلًا: الفَلسَفَةُ المَاديَّةُ ومَاهيَّةُ المَوت

إنَّ الماديَّةَ بشكلٍ عام مذهبٌ يَردُّ كلَّ شيءٍ إلى المادَّة؛ أي إنَّ الأصل في الموجودات هو المادَّة. وقد وُجد هذا المذهب منذُ العهد الأوَّل للفلسفة اليونانيَّة عند (طاليس) و(أنكسمانس) و(هراقليطس). فالمادَّة عندهم مُستكفية بنفسها، مُستغنية عن خالق يوجدها[١]. والماديَّة بوصفها تَوجُّهًا فِكريًا ونزعة فلسفيَّة، وإن كان قد ظهرت إرهاصاتها في الفلسفة اليونانيَّة مع الطَّبيعيّين الأوائل، ولكنها لم تظهر كتيَّار معرفيّ فلسفيّ رصين ومعياريّ إلَّا في مراحل زمنيَّة مُتأخّرة، بعد تراكمات فِكريَّة وإرهاصات فلسفيَّة منذ أيَّام التُّراث اليونانيّ، وحتَّى نهضة أوروبَّا الحديثة بين القرنين السَّادس عشر والسَّابع عشر. وقد بلغت الفلسفة الماديَّة ذروة تبلورها كنظريَّة معرفيَّة، في الفلسفة الماركسيَّة التي صاغها كلٌّ من (كارل ماركس) و(فريدريك أنجلز)، اللَّذان رأيَا أنَّ النظرةَ الماديَّة للعالم هي النظرة للطَّبيعة كما هي، دون أيَّة إضافة خارجيَّة[٢].

ويَعتبر أتباع هذا المذهب أنَّ الجوهر الوحيدَ الذي يُمكن القول بوجوده هو المادَّة، ولا شيءَ سواها. فالمادَّة هي الحقيقة المُطلقة، وما عداها عرضيٌّ ثانويٌّ ناتج منها، وخارج من رحمها. فالأصالة للمادَّة، وهي التي تُحدّد مدارك الوعي وقنواته النَّظريَّة في فَهم الوجُود الخاصّ والعامّ. بالتَّالي يتطوَّر الوعي البشريُّ بتطوُّر المادَّة المُحيطة بالإنسان[٣].

يُعرَّف الموت -بداية- بأنَّه مُفارقة الحياة، فالموت ضدَّ الحياة. ويُعرَّف أحيائيًا بأنَّه توقفٌ دائمٌ للوظائف الحيويَّة وعمليَّاتها التي تُحافظ على وجود الكائن على قيد الحياة[٤]. ويُعرَّف كذلك

١ - مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ص٥٩٣.

٢ - نبيل علي صالح: الماديَّة- مُقَارَبَةٌ نَقْدِيَّةٌ فِ الْبِنْيَةِ والمنْهَج-، ص١٧-١٨.

٣ - نبيل علي صالح: الماديَّة- مُقَارَبَةٌ نَقْدِيَّةٌ فِ الْبِنْيَةِ والمنْهَج-، ص١٨.

4 - See, John Daintith, Elizabeth A. Martin, A Dictionary of Science, p.223.

سلوكيًّا: بأنَّه «كفّ دائم للوعي والشعور، وتوقُّف المخ عن أداء دور القائد بالنّسبة للعمليَّات الحركيَّة والحِسيَّة والوظائف العقليَّة»[١]. كما عرَّفه (الراغب الأصفهاني) (ت ٥٠٢ هـ) بأنَّه انتقال «من دار إلى دار، حتى يستقرَّ بكم القرار، فهو وإن كان في الظَّاهر فناءً واضمحلالاً، ولكنّه في الحقيقة ولادة ثانية ... ولولا هذا الموت لم يَكمل الإنسانُ. إذًا، الموت ضروريٌّ في كمال الإنسانيَّة، ولكون الموت سببًا للانتقال من حال أوضع إلى حال أشرف وأرفع سمَّاه الله -تعالى- توفّيًا»[٢].

ويُعرّفه الفلاسفة القُدامى: بأنَّه توقُّف النَّفس عن استعمال آلات الجسد. وقد اعتبر هؤلاء الفلاسفةُ الموتَ ملهمَ الفلسفة؛ ومن أشهر تعريفات الفلاسفة للموت هو تعريف (ابن مسكويه) الذي يُعرّف فيه الموت قائلاً: «الموت ليس شيئًا أكثر من ترك النَّفس استعمال آلاتها، وهي الأعضاء التي مجموعها يُسمّى بدنًا كما يَترك الصَّانع استعمال آلاته»[٣]. ويُسهب في شرح هذا التَّعريف وبيانه قائلاً بأنَّه: «مفارقة النَّفس البدن، وهذه المفارقة ليست فسادًا للنَّفس، وإنَّما هي فساد المتركب. وأمَّا جوهر النفس الذي هو ذات الإنسان ولبُّه وخُلاصته فهو باق، وليس بجسمٍ فيلزم فيه ما لزم في الأجسام ...»[٤].

أمَّا الفلاسفة الماديُّون – وهم المعنيُّون في هذا البحث- فقد نظروا إلى الموت بوصفه فناءً تامًّا؛ إذ اعتقدوا أنَّ الموت هو فناء الجسد والنَّفس معًا، فآمنوا بـ «فلسفة التَّلاشي» التي تَعتبر أنَّ النَّفس مُؤلَّفةٌ من ذرات شأنها شأن الجسد، وعند الموت لا تتحرَّر النَّفس من الجسد كما هو شائع في الفلسفات غير الماديَّة، بل يَفسد كِلاهما، وتنحلُّ وتتبعثر ذرَّاتهما ضمن الدَّورة الشَّاملة الكُبرى للطَّبيعة؛ أي أنَّ النَّفس تتبدَّد عند الموت[٥]. ومن ثمَّ، فلا بعثَ ولا خلود ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب.

ثَانيًا: مَوقفُ فَلاسفَة اليُونَان المَاديّينَ من المَوت

اعتنقت فِئةٌ من أشهر فلاسفة اليونان القُدامى المَذهبَ المَاديَّ باعتباره مذهبًا فِكريًّا؛ حيثُ

١ - أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، ص١٥.
٢ - الراغب الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص١١٦.
٣ - ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٢٧٤.
٤ -ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٢٧٩.
٥ -عمرو شريف: أنا تتحدث عن نفسها، ص٣٨٧.

رأت الكائنات الإنسانيَّة الحيَّة الأُخرى ليست كائنات ثُنائية مُركَّبة من جسمٍ ماديّ وروح لا ماديَّة، وإنَّما هي جسميَّة في طبيعتها، وقد انعكست هذه الرُّؤية الماديَّة على تصوُّرهم للموت بأشكال متقاربة، جاءت كالآتي:

١. (طاليس- Thales [١]) والمادَّة المُكتفية بنفسها: قد انتهى (طاليس) إلى أنَّ الماء هو أصل الأشياء، وهو الذي خرجت منه كلُّ الموجودات، ومن جمود الماء تكوَّنت الأرض، ومن انحلاله تكوَّن الهواء[٢]. وما دام الماء هو أصل الأشياء جميعًا فإنَّ الأشياء جميعَها واحدةٌ. وعلى ذلك نجد أنَّ الموت عند (طاليس) هو عمليَّة انحلال تامّ للكائن الحيّ إلى مُكوّنه الأساسيّ، وهو الماء، فيُنكر بذلك أيَّ وجودٍ للرُّوح أو النَّفس بوصفها جوهرًا غير ماديّ، من الممكن أن يبقى بعد فناء البدن.

٢. (أناكيسمندر- Anaximander [٣]) والفناء في المادَّة اللانهائية: ذهب (أناكيسمندر) إلى القول بفناء الإنسان بعد الموت، ولعلَّ هذا ما تؤكّده شذرة (أناكسمندر) الشهيرة التي تقول: «إنَّ الأشياء تفنى وتنحل إلى الأُصول التي نشأت عنها، وفقًا لما جرى به القضاء، وذلك أنَّ بعضها يعوّض بعضًا وتدفع جزاء الظُّلم وفقًا لما يقضي به الزمان»[٤]. ورغم تتلمُذه على (طاليس)، لكنَّه رفض أن يكون الماء أو أيُّ مادَّة محسوسة هي المادَّة الأولى، وتصوَّر مادة ليست محسوسةً سمَّاها الأبيرون (Apeiron) ومعناها اللانهائي أو اللامحدود[٥]. ومن ثمَّ، يتَّضح لنا ارتباط هذه المادة غير المحسوسةِ

---

١ - يُعدّ (طاليس) أول الحكماء السبعة الذين اهتموا بالبحث في أصل الموجودات، وُلِدَ عام ٦٢٤ ق.م وعاش حتى بلغ عام ٥٤٨ أو ٥٤٥ ق.م. كان ذا نزعة ماديَّة بارزة اقترنت بفترة ازدهار هائل للعلوم الفلكية والرياضية والطبيعيَّة، وهو الازدهار الذي تجلت أوضح مظاهره في مدينة أيونيا، مهبط الفلسفة اليونانية، وموضع التقاء خلاصة الثقافات القديمة.

٢ - أبو الفتح الشهرستاني: الملل والنحل، ص٣٥٢.

٣ - عاش الفيلسوف اليوناني (أناكسيمندر) بين عامي (٦١٠ ق.م- ٥٤٥ ق.م) وهو أحد تلامذة (طاليس) أخذ عنه بعض التَّوجيه بوصفه كان أصغر منه بما يقرب من خمسة عشر عامًا، وقد تأثَّر كثيراً بنزعته الماديَّة، وآمن بفكرته عن الوحدة الماديَّة للطَّبيعة.

٤ - انظر: جاك شورون: الموت في الفكر الغربي، ص٣٨.

٥ - جورج سارتون: تاريخ العلم، ج١، ص٣٧١.

بمشكلة الموت؛ حيثُ إنَّه لا يوجد بعد الموت سوى الفناء في تلك المادَّة اللانهائيَّة؛ حيثُ يفنى الفرد ويبقى الكلُّ اللانهائيّ.

٣. (هيراقليطس- Heraclitus [١]) ومَبدأُ العَودِ الأبديّ: ذهب (هيراقليطس) إلى أنَّه ينبغي أن يكون وراء مظاهر الأشـياء جوهرٌ واحدٌ للكون، وأنَّ هذا الجوهرَ أو العنصر الأوَّل هـو النَّـار، وأنَّ هذا العـالم -وهو واحد للجميـع- لم يخلقه إله أو بـشر، لكنَّه كان، وهو كائن، وسوف يكون نارًا أبديَّة تُشـعل نفسها بمقاييس منتظمة، وتخبو بمقاييس منتظمة[٢]. وروح الإنسـان -عنده- جـزءٌ من النَّار الخالدة التي تتحـوَّل، لكنَّها تبقى للأبد، وأنَّ الموتَ ذاته ليس نهائيًّا؛ لأنَّ روح الإنسان هي جزءٌ من النَّار الخالدة، وهي بحسبانها كذلك تعود وتمضي مرارًا وتكرارًا إلى الأشياء جميعًا، وهو ما يُمكن تسميته بمبدأ «العود الأبدي»[٣].

٤. (ديمقريطـس- Democritus) وفَناءُ الرُّوح الذَّريَّـة: ولد (ديمقريطس) في أبديرا سنة ٤٦٠ ق.م وأنشـأ بها مع أستاذه (لوقبيوس) النَّظريَّة الذَّريَّـة؛ حيثُ ترى هذه النَّظريَّة أنَّ كـلَّ شيءٍ في هذا العالم يتكوَّن من ذرَّات صغيرة صلبة أزليَّة أبديَّة غير قابلة للتَّغيُّر الجوهريّ، وهي لا تَتناهى ولا تَندرج تحت حصر، وهي مُتفرقة لا تُرى لشدَّة صِغرها ودِقَّتهـا عن الحواس، وهي تختلف في صُورها وأحجامها وأوضاعها وتتَّفق فيما عدا ذلك[٤]. وتوجد الأشياء طالما كانت الذَّرات التي تتألف منها مجتمعة، وتنعدم عندما تتفرَّق هذه الذَّرّات. ومن ثمَّ، يؤكـد (ديمقريطس) على فناء الرُّوح؛ حيثُ إنَّ الذَّرات الدَّقيقة التي تتألف منها الروح تتبدَّد وتكفُّ عن الحركة والتَّفاعل، عند الموت.

٥. (أبيقور- Epicurus)[٥] واللامُبَـالاة تجاه المَوتِ: كان لـ(أبيقور) موقفٌ ماديٌّ صرف

---

١ - فيلسـوف يوناني في عصر ما قبل سقراط. كتب بأسلوب غامض، يغلب طابع الحزن على كتاباته، ولذا، عُرف بالفيلسوف الباكي. تأثر بأفكاره كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو.

٢ - فيليب ويلرايت: هيراقليطس، ص٤٩.

٣ - انظر: فيليب ويلرايت: هيراقليطس، ص٤٣.

٤ - محمد غلاب: الفلسفة الإغريقية، ج١، ص١٢٢.

5 - ولد (أبيقور) في جزيرة ساموس بالقرب من الساحل الأيوني حوالي عام 341 ق.م.

من الموت؛ حيثُ أكَّد على ماديَّة النَّفس؛ إذ يقول صراحةً: إنَّ «النفس جسم يتركّب من جزئيَّات (ذرّات) دقيقة منتشرة في كامل الجسد، وأنَّها أشبه ما يكون بنفس مختلطة بالحرارة؛ إذ هي مماثلة من جهة للنَّفس ومن جهة ثانية للحرارة»[1]، وهي منتشرة في سائر الجسد تملأ الفراغات أو الانفراجات أو المَسام التي تتركها الذَّرّات الجسميَّة فيما بينها. وهو بذلك يجعل وجودَ النَّفس مرهونًا بوجود الجسد، فإذا فني الجسد فنيت معه النَّفس. والموت هو انعدام الإحساس، ولم يعد الموت في نظر (أبيقور) موضوعًا لأيّ تأمُّل فلسفيّ تُوجّهه اعتبارات أُخرَويّة، بل أصبح مجرّد حادث تكوينيّ لا أهميَّة له؛ لأنَّ تجربةَ الموتِ لم تعد موجودةً.

وقد ذهب فلاسفة اليونان المُتقدّمون هذا المذهب لاعتمادهم على العقل وحده، رغم أنَّ العقل البشري مهما بلغ من عبقريَّة، ومهما أُوتي من براعةٍ في الاستدلال والاستنباط، لا يستطيع أن يتوصَّل إلى تصوُّر نقيّ كاملٍ عن الغيبيَّات بمفرده، ودون مساعدة من الوحي السماويّ. فكان مذهبهم هذا هو مذهب «الدهريَّة» الذي يلخّص قصة الحياة في: أرحام تدفع وقبور تبلع، وما يهلك المرء إلا الدَّهر. لذلك قال فيهم الله -تعالى-: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾ [الجاثية: ٢٤]. وقد اجتهد هؤلاء الفلاسفة بحثًا عن السَّعادة القائمة على الملذَّات الدُّنيويَّة، فلم يجدوا سوى الشَّقاء، ونظروا إلى أنفسهم بوصفهم كائنات فانية، فوجدوا أنَّهم مجرَّد موجودات تافهة لا وزن لها ولا قيمة، وُجِدوا ولا يعرفوا كيف وُجدوا، ولا مَنْ أوجدهم؟! يعيشون، ولا يدرون لماذا يعيشون؟! ويموتون، ولا يدرون لماذا يموتون؟! ولا ماذا يكون مصيرهم بعد الموت؟! إنَّهم في شكٍّ -بل في عمى- من أمرهم كلِّه: محياهم ومماتهم، ومبدؤهم ومنتهاهم، كالذين قال الله فيهم: ﴿**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ**﴾ [النمل: ٦٦]. فعاش معظمهم مضطربَ النَّفس، مُتحيّر الفِكر، مُبلبَل الاتجاه، مُمزَّق الكيان، يُعاني عذابًا نفسيًّا يطول مداه، يلازم من نُكب به طوال الحياة.

وقد كان ماديُّو العصر الحديث، هم الصُّورة الأقرب لهؤلاء الدهريّين القُدماء وامتدادًا لهم، كما سيتَّضح لنا في المبحث الآتي.

---

١ - أبيقور: الرسائل والحكم، ص١٨٤.

ثَالثًا: المَوتُ عندَ الفَلاسفة المَاديّين في العصر الحديث

ما كَادت تنتهي مرحلة التَّديُّن الأوَروبيّ بالمسيحيَّة، حتَّى تَمَّ إحياء النَّزعة الذَّريَّة الماديَّة في القرن السابع عشر الميلاديّ، وعاد المذهب الحِسيّ المَاديّ إلى السّيادة والصَّدارة إبَّان النَّهضة الأوروبيَّة الحديثة، وقال به فلاسفة كثيرون، من أبرزهم (توماس هوبز - Thomas Hobbes) ١٥٨٨-١٦٧٩، و(كوندياك- Condillac) ١٧١٤-١٧٨٠، و(ديفيد هيوم- David Hume) ١٧١١-١٧٧٦، وذلك فضلاً عن فلاسفة الماديَّة الجدليَّة والتَّاريخيَّة، مثل (ماركس - Karl Marx) ١٨١٨-١٨٨٣، و(إنجلز- Engles) ١٨٢٠-١٨٩٥، وغيرهم من الذين رأوا أنَّ الحواسّ هي المصدر الوحيد للمعرفة الإنسانيَّة، وهي وحدها التي تفصل في قيمة هذه المعرفة، وأنَّ المعقولَ مردود إلى المحسوس. ومن ثَمَّ، أنكروا معارف الوحي الإلهيّ والغيب والدّين[١].

وسوف نعرض فيما يأتي رؤى أشهر الماديّين في العصر الحديث وموقفهم من الموت:

١. **توماس هوبز والإنسانُ ذو البُعد الواحد:** نظر (هوبز) إلى الإنسان بوصفه مُكوَّنًا من العنصر الماديّ فقط، وقد ساعده في ذلك أبحاث (هارفي- Harvey) في كتابيه: "دورة الدَّم" و"منشأ الكائنات الحيَّة"، وتحت تأثير هذه الأبحاث فسَّر(هوبز) الحياة تفسيراً ماديًّا، ورَدّ الجُسْمُورِيَّة(علم وظائف الأعضاء) إلى علم الطبيعة، وذهب إلى أنَّ الحياة نفسَها ليست سوى حركة، وأنَّ أصل الحياة موجود في القلب، والحياة هي حركة الأعضاء[٢]. ومن ثمَّ، يرفض (هوبز) أيَّ نظريَّةٍ تنظر إلى «النَّفس» بوصفها جوهرًا ماديًّا يتميَّز عن البدن، ويقوم بذاته، ويدخل في الإنسان لحظة الميلاد ويخرج منه لحظة الموت. ثم لا يلبث حتى يرفض كل أفكار الكنيسة الكاثوليكيَّة التي تتحدَّث عن الحياة في العالم الآخر[٣]. ولكنَّ (هوبز) يعود ليُناقض نفسه؛ فمع إقراره الذي لا يقبل الشكَّ بأنَّ النَّفس ليست خالدة، يرى أنَّ الربَّ في يوم الدينونة سيبعث المُخلِصين بأجسام روحانيَّة مجيدة، فيما سيُعاني العُصاة موتًا ثانيًا وأبديًّا.

٢. **(إسبينوزا- Baruch Spinoza) والخُلود الإبستمولوجي:** يذهب (إسبينوزا) إلى القول

---

١ - محمد عمارة، تقديم كتاب (في الرد على الماديين للعلامة محمد فريد وجدي)، ص ٣-٤.

٢ - إمام عبد الفتاح إمام: توماس هوبز فيلسوف العقلانية، ص١٤٥.

٣ - راجع: امام عبد الفتاح إمام: توماس هوبز فيلسوف العقلانية، ص٤٣٠.

إنَّ الحيـاة الأبديَّة ليسـت بقاء النفس بعد فناء الجسـم، أو الخلـود في عالمٍ مُفارِق، فإنَّ النَّفس فكرة الجسـم ولا توجد إلَّا بوجود الجسم، وأنَّ النَّفس سرمديَّة مِن حيثُ هـي حاصلة على معرفة الحقائـق السرمديَّة، وكلَّـما ازدادت معرفتها ازداد حظَّها من الخلود، فإنَّ الخير الوحيد الذي يُدركه عقلنا، والخير الخُلقي ما أنمى العقل، والشر ما انتقصه وأفسـده، وذلك هو الدّين الحق الذي نجده في أنفسنا[١]. ومن ثمَّ، فعندما يقول (إسبينوزا): «إنَّ العقل البشريَّ لا يفني نهائيًّا مع الجسـم، وإنَّما يتبقى منه شيءٌ أزليٌّ». فهو إذًا، لا يقصد أبدًا خُلود العقل في عالم مفارِق بعد فناء الجسد، وإنَّما هو أوَّلًا يقصد الجسم بمعناه المتحدّد زمانيًّا ومكانيًّا، ويكون المقصود أنَّ العقل إذ يُكوّن أفكارًا عن ماهيَّات الأشـياء -ومنها ماهيَّة الجسم ذاته- تتجاوز نطاق وجودها الفعل الجزئي لجسـمه هو ذاته، يمكن أن يُعدّ بهذا المعنى أزليًّا بالنّسـبة إلى الجسم، ومع ذلك فليس لهذا البقاءِ الأزليّ أيُّ صِلةٍ بالاستمرار الزمني المعروف؛ لأنَّ (إسبينوزا) قد استبعد كل هذه المعاني التقليديَّة منذ البداية[٢]. وقد عالج (إسبينوزا) مشكلة الموت انطلاقًا من هذه الرُّؤية التي لا تهتم بالموت، بل إنَّه يرى أنَّ «الإنسان الحر لا يفكر في الموت إلا أقل القليل؛ لأنَّ حكمته هي تأمُّل الحياة لا تأمُّل الموت»[٣]. ويرى أنَّ دمار العقل والانهماك في المتع الحِسـيَّة هو تعجيل بالموت، وأنَّ الإنسان الذي يستخدم عقلَه في تحقيق المعرفة الأسمى هو أقل خضوعًا وأقل رهبة أمام الموت.

٣. **مَاديُّو القرن الثامن عشر:** من أشـهر الفلاسفة الماديّين في القرن الثامن عشر الميلادي الفيلسوف الفرنسي (كوندياك- Condillac)، يقول صراحةً في كتابه "رسالة في الحواس Traité des sensations": "إنَّ الوعي يَنتج من الأنشـطة الجسـديَّة، فلولا حواسُّنا ما كانت أفكارنا"[٤]. تلك الأفكار التي تبقى في الذَّاكرة ما دمنا أحياء، لكنَّها تختفي بفناء الجسـم؛ وإنَّ الرُّوح ليسـت كيانًا مستقلًّا عن الجسـد حتى تبقى بعده فتنعم بنعيم أو

١ - راجع: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١١٦.

٢ - راجع: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص١٦٣.

3 - Spinoza, Ethics, p.355.

4 - Etienne De Condillac, Essay on the Origin of Human Knowledge, p.15.

تتألَّم في جحيم، فالموت هو نهاية الوجود البشري، ولا توجد حياة أُخروية للاستمتاع أو المعاناة؛ ويشاركه الرأي نفسه (هولباخ – Holbach)، مؤلّف كتاب «نظام الطَّبيعة» الذي كان له عميق الأثر على الفلسفة، التي يرى أنَّها يُمكن أن تُعرَّف على النَّحو السَّليم بوصفها تأمُّلاً للموت؛ إذ علينا أن نجعل ما هو حتميّ مألوفًا لدى نفوسنا ونواجه الموتَ بهدوء، والأمر الأساس هو ألَّا ندعه يُفسد متعة الحياة، فالخوف من الموت هو العدو الحقيقي الوحيد الذي يتعينَّ قهره، وعدم وجود حياة أخرى يُحرّرنا من سلطة القساوسة[١]. وجعل (كوندورسيه – Condorcet) همَّه الأوَّل إطالة مدى الحياة للكائن البشري حتى يحقّق أهدافه، وتتحقَّق الأهداف عبر المزيد من اكتساب المعرفة، وتقدم العلم، والتَّحرُّر من العبوديَّة السياسيَّة والاقتصاديَّة، فإنَّ في تحقيق هذه الأهداف السَّامية ما يبعث على الرّضا والعزاء. فعلى الرَّغم من أنَّ الموت هو النّهاية التي لا مناص منها، والفناء الشامل للشَّخص، ولكن لن تتبدد أبدًا عبر العصور آثار يومي الفاني[٢].

٤. **(ديفيد هيوم- David Hume) وإشكالات الخلود:** اهتم (هيوم) بالبرهنة على نفي الخلود من خلال البرهنة على عدم جوهريَّة النَّفس؛ لأنَّه رأى أنَّ القول بجوهريَّة النَّفس يستلزم وجودًا حسيًّا ثابتًا دائمًا، تندرج فيه وتتشابك سلسلة كل الانفعالات والمفاهيم، وهذا ما لا يُمكن العثور عليه لأنَّ الإنسان في حالة من التَّغيُّر الدَّائم، ومن ثمَّ يرى أنَّ موت الإنسان هو نهاية كلّ تجربة بالنّسبة إلى النَّفس، ونهاية الانطباعات والأفكار كافَّة. ومن ثمَّ لا أمل في خلودها إلَّا إذا افترضنا وجودها قبل البدن. ولذا فالاحتمال الوحيد الممكن –عند (هيوم)- هو نظريَّة التَّناسخ، ولكن هذا الاحتمال لم ينجُ من التَّفنيد «الهيومي»؛ حيثُ إنَّه لا يوجد دليل على الوجود السابق للنَّفس؛ لأنَّه تجربة لم يسبق لأحد أن مرَّ بها، ولا يمكن للعقل أن يُقيم عليها البرهان المحكم[٣]. كما يثير (هيوم) جملةً من الإشكالات حول القول بخُلود النَّفس[٤]، منها:

---

١ - راجع: جاك شورون: الموت في الفكر الغربي، ص١٤٥.

٢ - راجع: جاك شورون: الموت في الفكر الغربي، ص١٤٥-١٤٦.

٣ - راجع: محمد عثمان الخشت: الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص١٠٣.

٤ - راجع: محمد فتح على خاني: فلسفة الدين عند هيوم، ص٣٦٤-٣٦٧.

أ. يتساءل (هيوم) مستنكرًا: كيف لإله عادل أن يُركّز كلَّ حواسنا وعلومنا حول هذا العالم المحدود، والحال أنَّ عالَمًا آخر في انتظارنا، إذا لم نهتم به قد يُكلّفنا هذا عقابًا أبديًّا في العالم الآخر؟ وأيّ عدالة تلك التي تُوجِدُ لنا في حياتنا الدُّنيا احتياجات تتركّز على إشباعها كلُّ مواهبنا الذّهنيَّة والعقليَّة، بحيثُ لا يبقى لنا مجال ولا قدرة للتَّفكير في عالم آخر؟ فإنَّ عدم وجود تلك القدرة للاهتمام بعالم آخر ألا يُعد دليلاً على انعدام عدالة علَّة العالم إذا سلَّمنا ببقاء الرُّوح بعد الموت؟

ب. كما أنَّنا لو سلَّمنا بأنَّ كلَّ أعمال النَّاس معلولة، وسلسلة العلاقات العلّيَّة مستمرة إلى علَّة العِلل، سيكون الله نفسه علَّة كلّ أفعال الإنسان الشرير منها والخيّر. لذا، سيكون من غير العدالة معاقبة الإنسان على أعماله التي لا علَّة لها إلا الله.

ج. يرى (هيوم) أنّ الأمر الأكثر إشكالاً في عمليَّة العقاب ذاتها؛ فإنَّ عمليَّة عقاب المُخطِئ يجب أن يكون لها دافع وهدف مرجوٌّ من ورائها؛ فالعقوبات الدُّنيويَّة من أجل أن يعود المخطئون إلى جادة الصَّواب، ويتحاشى الصَّالحون السَّير في طريق الخطايا. أمَّا الدَّار الآخرة، فليست دارَ عمل حتى نترجَّى من معاقبة المخطئين عودتهم وتوبتهم. وبذلك ستكون المُعاقبة غير الهادفة في الدَّار الأخرويَّة عمليَّة عبثيَّة ولغوًا، إلَّا إذا قلنا إنَّ الهدف منها هو تَشفّي المُعاقِب، وهذا بدوره لا يصدق على الله؛ لأنَّه لا يحقد حتى يلزمه الانتقام والتَّشفّي.

د. وتكتمل جملة الإشكالات التي يرى (هيوم) أنَّها تمنع القَولَ بخلود النَّفس، أو وجود حياةٍ أخرويَّة بعد الموت، والتي تكمن في أنَّ العدالة تقتضي التَّناسب بين الجريمة والعقاب، فكيف تقضي العدالة الإلهيَّة في الحياة الأخرويَّة بعقابٍ أبديّ لشخصٍ ارتكب معصية عابرة محدودة بزمن محدد؟!

٥. (لودفيج فويرباخ- Ludwig Feuerbach) والانحلال الكَاملُ للكَينُونَة البشريَّة: يُعرِّف (فويرباخ) الموتَ بأنَّه «الانحلال الكامل والشامل لكينونتك بمُجملها، فليس ثمَّة غير موت واحد فحسب، والذي هو كلّي، لا يقضم الموت شيئًا من الإنسان ولا يترك بقيَّة

... وحين تموت فأنت تموت كلّيًّا؛ كل ما فيك ميت»[١]. والموت عند (فويرباخ) كامنٌ داخـل النَّفس البشريَّة ولا يأتيها من الخارج، يكمُن في دمنا وفي أعصابنا ومخنا وفي كل أعضاء جسـمنا، في كل خليَّة من خلايا الجسد الإنسانيّ. ومن ثمَّ، يكون الموت ليس شـيئًا خارجيًّا تمامًا عن الحياة، وإنَّما هو مُعانق لهـا، مُتداخل معها ممتزجٌ بها. فإذا كـان الموت هو النّهاية فإنَّ في الخلود التَّعويض عن مثـل هذه النّهاية التي ينفر منها الإنسـان؛ ولذلك كـان الخوف من التَّلاشي بعد الموت هـو أحد مصادر التَّأليه عند (فويرباخ)؛ حيثُ يقول عبر عبارة بالغة الأهمية: «إنَّ المقبرةَ التي تمثّل نهاية الفرد تمُثل موضع ميلاد الآلهة، فلـولا الموت لما كان هناك وجود لفكرة الله»[٢]. ومن ثمَّ يكون مضمون العلاقة بين الموت والخلود عند (فويرباخ): أنَّ الموت حقيقةٌ، والخلود تصوُّر، ولذلك لا ينبغي الخلط بين الحقيقة والتَّصوُّر.

نتهي من عرض وجهات نظر الماديّين في العصر الحديث، إلى أنَّهم كانوا جميعًا من الفلاسفة الذين اشـتُهروا بالإلحاد والتَّمرُّد على الدّيـن. ومن ثَمَّ، كان الهـدف الأوَّل من إنكارهم البعث والثـواب والعقاب هـو إنكار الدّين بالكلّيَّة؛ فـما دام لا وجود هناك لحيـاة أخرويَّة، فلن يكون هنـاك مبرّر للعبادات وللالتزام بأوامـر الله -عزّ وجلّ- ونواهيه، وبذلـك يُفرغون الدّين من كلّ معنـى وقيمة: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ [التَّغابن: ٧]. رغم أنَّه لم يكد القرن الثامن عشر الميلادي أن ينتهي حتى اكتشف العالم السويسري (فرانز ميسمر - Franz Mesmer) التَّنويم المِغناطيسيَّ، فأثبت بالعلم أنَّ الإنسان ليس مجرَّد أداة ماديَّة، ولكنَّه مُستودع لروح تُخالف المادَّة من جميع الوجوه، وتتسلَّط عليها بعد أن تبطل عمل النَّواميس الطبيعيَّة عنها، ودلَّل على وجود عقل باطن للإنسان أرفع من عقله، مُتَّصل بعالم روحاني أسمى بما لا يُقدَّر من العالم الماديّ. فكان هذا الاكتشاف بمثابة كُوَّة فتحها العلم إلى عالم الرُّوح، مكَّنته من دراسة الشَّخصيَّة الإنسانيَّة الباطنيَّة دراسةً علميَّةً محضة، كانت نتيجتها الإثبات بالدَّليل المَحسـوس أنَّ الإنسان الحقيقيَّ ليس محصورًا في هذا الجسد الحيوانيّ، ومدى وجوده ليس قاصرًا على ما حوله من الكائنات الماديَّة، ولكنَّه ينطوي على قُوى

١- لودفيج فويرباخ: أفكار حول الموت والأزلية، ص٧٥.

٢- أحمد عبد الحليم عطية: فلسفة فيورباخ، ص٢١٧.

باطنيَّة عُلويَّة مُتصلة اتصالاً مباشرًا بالعالم الرُّوحاني على درجات شتَّى، وأنه يستمدُّ منها كل ما يشعر به في نفسه من سمو، وكل ما يتوق إليه في حياته من خلود. ثمَّ جاء القرن العشرون بنظريَّات علميَّة أكثر دقة مثل: النّسبيَّة والكُوانتم تدحض مزاعم الماديّين بأنَّهم ينطلقون من منطلقات علميَّة، ورغم ذلك لم يتخلَّ هؤلاء الماديُّون عن عنادهم بالتَّمسك بالباطل، وأعرضوا عن الحقّ الظَّاهر، الذي أعوزته النَّظرة الماديَّة الضَّيقة فعجزوا عن أن يُدركوا رحابة الكون الذي تعكسه النَّظرة الرُّوحية أو الدينيَّة، وواضح أنَّها نظرة لا تُولد في النَّفس إلَّا حينما يتَّسع أفقها، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه، فهي أوسع النظرات مجالاً، وأبعدها مطلبًا. وهو ما سيتَّضح لنا كما سنرى في المبحث التَّالي.

رَابِعًا: الموتُ عندَ الفَلاسفة المَاديّينَ في الفَلسفة المُعاصرة

ازدهرت الفلسفة الماديَّة مع بزوغ فجر القرن العشرين الميلادي نتيجةً للتَّقدُّم الهائل الذي أحرزته العلوم التَّجريبيَّة، وقد استطاعت هذه الفلسفة أن تظفر بالتَّأييد من شواهد علم الجيولوجيا والأحياء ونظريَّة التَّطور العُضوي، التي دلَّت على أنَّ الحياة والعقل قد تطوَّرا من المادَّة الجامدة؛ إذ زعم أصحاب هذه العلوم أنَّ وجودَ الحياة العقليَّة ومداها يتوقَّف على حجم المُخّ وهيئته، وذاعت شهرة الأحيائي الألماني (كارل فوجت) لعبارته التي قال فيها «إنَّ الفكر يرتبط بالمخ كما ترتبط الصفراء بالكبد، والبول بالكُليتين»[1]. ومن ثمَّ زعموا أنَّ المادةَ متأصّلٌ في بنيتها خاصيَّة تُشبه الحياة والعقل، وأنَّ هذه الخاصيَّة تظلُّ كامنة في المادَّة غير الحيَّة، ثُمّ تُفَعَّل لتُصبح حياةً في الكائنات الحيَّة، ثُمَّ وعيًا وعقلاً مع تطوُّر الحيوات العُليا. ومن أهمّ الفلاسفة الماديّين الذين ذهبوا هذا المذهب هم:

١. **(هيدغر- Martin Heidegger) والوُجودُ نحوَ المَوت:** يُعتبر (مارتن هيدغر) واحدًا من أهمّ الفلاسفة الوُجوديّين، بل يمكن اعتباره المُؤسّس الحقيقيّ للفلسفة الوجوديَّة، وهو فيلسوف ألماني عاش في الفترة بين ١٨٨٩-١٩٧٦م. وقد اهتمّ بفلسفة الموت اهتمامًا كبيرًا انطلاقًا من اهتمامه العام بمشكلتي الوجود والموجود؛ وذهب إلى أنَّ

١ - جوناثان ري، وج. أو. أرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص ٢٨٥.

الموتَ هو أكثر من سلب الوجود الإنسانيَّ؛ لأنَّه يتخلَّل هذا الوجود، فما أن يوجد الكائن الحي إلَّا ويكمن الموت في ثناياه؛ حيث يقول: "فبمجرّد أن يأتي الإنسان إلى الحياة حتَّى يكون في الحال شيخًا مستوفيًا للموت"[١]. ولا يَعتبر (هيدغر) الموت أوج الحياة كما اعتقد آخرون، ولكنَّه يرى أنَّ الموت هو تحطيم للحياة وقضاء عليها. وهو حادثٌ فرديّ إلى أبعد حدّ؛ إذ يموت من يموت وحده دون أن يشاركه أحد. لهذا، فهو تجربة مُوغلة في الفرديَّة تُشعر الفَرد بوجوده الفرديّ الذَّاتيّ الحقّ، وتُشعر الإنسان دومًا بالنَّقص وعدم إدراك الكمال؛ لأنَّ الموت يتربَّص به دائمًا، ولا يتركه يسعى إلى كماله المنشود حتى ينقضَّ عليه. فالإنسان موجود يسير تجاه الموت الذي هو نهايته الحتميَّة.

٢. **(سارتر- Sartre) والمَوت كإمكانيَّة:** يُعدُّ الفيلسوف الفرنسي (سارتر) من أشهر الفلاسفة الوُجوديّين، وتتلخَّص رؤيته للموت بأنّه المُتخفّي وراء الجدار، الذي لا يُمكن التَّحكُّم فيه أو منعه، ينتظر كل إنسان دون تحديد مُسبق للموعد الخاص به؛ إذ هو إمكانيَّة دائمة للكائن البشري، وفي ذلك يقول: "ليس بوسعي أن أكتشف موتي أو أنظره، أو أن أتَّخذ موقفًا حياله؛ لأنَّه الذي يكشف نفسه باعتباره غير قابل للكشف"[٢]. فالوجود البشريُّ يقتضي بطبعه التَّناهي؛ إذ هو موجود من أجل الموت، والإنسان يبقى في انتظار الموت دون أن يستطيع أن يُحدّده، وكأنَّ هدفَ الحياة هو انتظار الموت. ذلك الموت الذي يقضي على الكائن الحي بالفناء، فلا يُمكن أبدًا أن يمنح الحياة أي مغزى سوى أن يحرمها من كل مغزى؛ لأنَّه وصول إلى العدم، ومن ثمَّ يشعر الإنسان دائمًا بالقلق تجاه هذا المصير العدميّ الذي ينتظره ويحيط به من كل جانب. ويضرب مثالاً لذلك، يطمح شابٌّ أن يكون كاتبًا عظيمًا، يموت في الوقت الذي يبدأ في كتابة رائعته الكبرى، فتُصبح مشروعاته الإبداعيَّة كافَّة بلا معنى. ومن ثَمَّ، يكون الإنسان قد قُذف به من العدم إلى العدم.

٣. **(رسل- Russel) وإنكار وجودِ كَينونةٍ منفردةٍ تُسمَّى النَّفس:** يُعدُّ (رسل) أكثر الفلاسفة

---

١ - مارتن هيدجر: الوجود والموجود، ص١٨٧

٢ - جاك شورون: الموت في الفكر الغربي، ص٢٧٩.

الإنجليز شـهرةً وأكثرهم إثارة للجدل، كما يُعدُّ واحدًا من أبرز الفلاسفة الماديّين في تاريخ الفلسـفة الإنجليزيَّة، التي يغلب عليها السّمة الماديَّة عمومًا؛ حيث رفض كلَّ ما يخصُّ قضايا الغيبيَّات كأيّ فيلسـوف ماديّ. ومن ثمَّ، أنكر خلود النفس، بل أنكر وجود كينونة تُسمَّى النَّفس، وصرَّح بذلك بقوله: «أعرف أنَّ الجسم سيتفكَّك وينحلُّ، ولا أرى من مُوجب على الإطلاق للاعتقاد بأنَّ الرُّوح ستسـتمر عندما يكون الجسـم قد تفكَّك وانحلَّ»[١]؛ ويتابع قوله: «والصُّعوبة التي يقابلها العلم (المادي) تنشـأ عن حقيقةٍ مفادها على ما يبدو عدم وجود كينونة اسمها الرُّوح أو النَّفس. وكما شاهدنا لم يعد من الممكن اعتبار الرُّوح والجسد مادَّتينِ باقيتين على مرّ الزَّمان»[٢]. وبناءً عليه، فالموت فناءٌ تامٌّ.

٤. **(ماركس- Marx) والنَّظرةُ الماديَّةُ للإنسـان:** تُعدُّ الماركسـيَّة أحد أهمّ فروع الفلسفة الماديَّـة؛ حيثُ إنَّها تُفسّر الوجودَ تفسـيراً ماديًّا صِرفًا، ولا تجد لـه أصلاً إلَّا المادة. وتُنسـب إلى (ماركس) الذي وُلـد في ألمانيا عام ١٨١٨م من أصـل يهوديٍّ، وتُوُفيّ عام ١٨٨٣[٣]. أمَّا عن رؤيته لمشـكلة الموت فإنَّها تعود إلى رؤيته الماديَّة للإنسـان؛ فالإنسـان كلُّه نتاج الطبيعة، والدّماغ ليس إلَّا مـادة دقيقة التَّركيب، والعقل أداةٌ ماديَّةٌ تعكس المؤثّـرات الخارجيَّة، ثمَّ تتأثَّر بهـا، ولكنَّه في ذاته ليس حقيقـةً فعَّالةً مؤثّرة. ومُجمل القول إنَّ نظرته للإنسان هي نظرة ماديَّة حيوانيَّة تنفي الجوانب الرُّوحية والمُثل العليا. أمَّا عن أصل الحياة فقد وُجِدت الخليَّة الحيَّة الأولى التي تشعبت منها سلسلة التطوُّر نتيجة تفاعلات كيمائيَّة وبيولوجيَّة في عصور جيولوجيَّة سحيقة[٤]. وعليه، إنّ النَّفس عند الموت تتحلَّل وتفنى إلى مادَّتها الأولى التي تكوّنت منها. فلا توجد روح تظلُّ بعد الموت؛ لأنَّ الوعيَ الإنسانيَّ يرتبط بالواقع الماديّ والتاريخيّ، والموت هو النهاية الطبيعيَّة لهذا الوعي.

---

١ - برتراند رسل: محاورات مع برتراند رسل، ص٣٣.

٢ - برتراند رسل: الدين والعلم، ص١٣٥.

٣ - مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة، ص١٤٣.

٤ - مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة، ص١٤٤.

٥. **(دانييل دنيت-Daniel Dennett) وخُلودُ المَشاهير:** يُعدُّ الأمريكي (دانييل دنيت) المولود في ١٩٤٢ أبرز الفلاسفة الماديّين المعاصرين؛ حيثُ يمثّل أقصى درجات المذهب المادّي في النَّظر إلى الوعي[١]؛ حيثُ رفض القولَ بثُنائيَّة الإنسان، تلك الفكرةُ التي يتمسَّك بها المُتديّنون التي تُعشمهم بالخلود الذي يُحقّقه الإيمان بإله خالد قادر، ويرى أنَّ الإنسان كيان مادّي واحد يفنى بالموت ولا يبقى منه سوى سيرته القائمة على الأقوال والأفعال؛ إذ يقول (دنيت): «بالطبع يمكن أن تظلَّ تأثيرات كلمات الشخص وأفكاره تتردَّد في الحضارة الإنسانيَّة لفترة بعد الموت، ويتوقف بقاؤها على أهميَّتها وأهميَّة قائلها. فـ(إبراهام لنكولن) الآن يحيا معنا ومعروف ومشهور وأفكاره شائعة بيننا أكثر من معظم الأشخاص الذين ما زالوا أحياء. أعتقد أنَّ الكثيرين يتوقون لهذا النَّوع من خُلود أفعالهم، وربما يفضّلونه أكثر من التَّصوُّر التَّقليديّ المُتناقض للخُلود في السَّماء»[٢].

وهكذا مضى الفلاسفة الماديُّون المعاصرون في غيهم وعنادهم في إنكار البعث والثواب والعقاب لإنكارهم الدّين في العموم، رغم أنَّ الدّين هو الذي يُعرّف الإنسان: إلى أين يسير بعد الحياة والموت، إنَّه يعرّفه أنَّ الموت ليس فناءً محضًا، ولا عدمًا صِرفًا، إنَّما هو انتقال من مرحلة إلى أخرى، إلى حياة برزخيَّة بعدها نشأة أخرى تُؤتى فيها كلُّ نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت، فلا يضيع هناك عملُ عامل من ذكر أو أنثى، ولا يفلت من العدل الإلهي جبَّار أو مستكبر: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٦-٨]. بهذا يعيش الإنسان بوجدانه في الخلود، ويعلم أنَّه خُلق للأبد، وإنَّما ينتقل بالموت من دار إلى دار. فإذا أدَّى مهمّته في هذه الدَّار المحفوفة بالتَّكليف والابتلاء، وجد جزاءَه هناك في الدار الآخرة ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٣٠]. بهذا يدرك الإنسان سرَّ وجوده، ويستبين مُهمَّته في الحياة؛ حيثُ إنَّ إنكار الخلود والدَّار الآخرة هو أمرٌ يجعل الإنسانَ في نظر نفسه مخلوقًا حيوانيًّا، يعيش ويتمتّع ثم يهرم ويموت ويَنفق دون أن يعرف

١ - سوزان بلاكمور: لغز الوعي- حوارات حول الوعي-، ص٧٢.

٢ - سوزان بلاكمور: لغز الوعي- حوارات حول الوعي-، ص ٧٨.

لحياته هدفًا أو يدرك لها سرًّا. وما أقسى حياة الإنسان حين يعيش في جحيم الشكّ والحيرة أو في ظُلُمات العمى والجهل، في أخصّ ما يخصُّه: في حقيقةِ نفسه، وسرّ وجودِه، وغايَةِ حياتِه.

فالحضارةُ الغربيَّة في نظر المُنصفين ما هي سوى حضارة عَوراء تَرى بعينٍ واحدة، أو هي -بوصف أدق- حضارةٌ عرجاءُ تمشي على ساق واحدة، أورثت الإنسانَ الغربيَّ -وكل إنسان خضع لنفوذها- الضَّنك، بكل ما في كلمة الضَّنك من معنى. فإنَّه -رغم الوفرة التي قدَّمتها في الجانب الماديّ، وفي الأشياء والأدوات والمخترعات- في ضنك نفسيّ ورُوحي يفتقد إلى الطُمأنينة والسَّكينة واليقين، أضحى يعاني من التُّخمة في الإشباع الماديّ كما يُعاني الخواء الرُّوحي، يَقضُّ مضجعه كلُّ ليلةٍ الارتياب والشكّ والقلق. على عكس الحضارة الإسلاميَّة التي يؤمن فيها المرء بالله الخالق، ويعتقد فيها بالبعث والمَعاد والحساب، يعرف فيها الإنسان على وجه اليقين: لماذا خُلق؟ ولماذا كُرّم وفُضِّل؟ يعرف غاية وجوده في هذا الكون، وأنَّه لم يُخلق عبثًا، ولن يُترك سُدىً، فقد خُلِق ليكون خليفةَ الله في أرضه، يعمُرها كما أمره الله، ويُسخّرها كما أمره الله، فيكشف عن مكنوناتها، ويأكل من طيّباتها، غير طاغٍ على حقّ غيره، ولا ناسٍ حقَّ ربّه؛ فإذا أدَّى مهمته على الوجه الأتمّ، وجد جزاءه جنةً عرضها السماوات والأرض.

خَاتِمَةٌ:

انتهت هذه الدراسة إلى أنَّ الحضارة الغربيَّة لا تخرج عن كونها إرثًا للحضارة اليونانيَّة والرومانيَّة؛ إذ إنَّ التَّصوُّرات الفلسفيَّة هناك ترتبط جذورها بالأقدمين؛ حيثُ ظهرت الماديَّة الحديثة وموقفها من ظاهرة المَوت ما هي إلَّا ترديدًا لأقوال الأوَّلين مع اختلافٍ يسيرٍ حسب تطوُّرات العصر؛ إذ بدأ الفلاسفة الماديُّون بدءًا من فلاسفة اليونان القُدامى حتى الفلاسفة المعاصرين يؤمنون بأنَّه لا توجد إلا ذرَّات تتحرَّك في فضاءٍ فارغٍ، وأنَّ التَّغيُّرات الوحيدة المُمكنة هي التَّغيُّرات الناتجة عن حركة الذَّرات واصطدامها ببعضها واتحادها، بما في ذلك الذَّرات بالغة الدّقَّة التي تُكوِّن الأرواح والنُّفوس، ومن ثمَّ، فإنَّ التَّغيُّر الحقيقيَّ وهمٌ كبيرٌ، وزعمٌ مستحيل، وما الموت سوى تلاشٍ يعمُّ الجسدَ الإنسانيَّ فيُحيله ذرَّات كما كان في البداية قبل التَّكوُّن. وبات تفسيرهم للنَّفس من خلال «مذهب شمول النَّفس» هو التَّفسير المُعتمَد، الذي يرى أنَّ المادَّة متأصّلٌ في بِنيتها

خاصيَّة تُشبه الحياةَ والعقلَ، وأنَّ هذه الخاصيَّة تظلُّ كامنةً في المادَّة غير الحيَّة، ثمَّ تُفَعَّل لتُصبح حياةً في الكائنات الحيَّة ثم وعيًا وعقلاً مع تطوُّر الحيوات العُليا. وقد أراح هذا التَّفسير الماديّين؛ إذ فسَّر لهم انبثاق القدرات العقليَّة في المادَّة دون الاحتياج لتدخُّلٍ من خارجها، وهو ما عبرَّ عنه الماديُّـون بأنَّ «كوننا مغلق» مكتفٍ بذاته، ليس في حاجة لتدخُّـلات خارجيَّة، أي أنَّه ليس كونًا مفتوحًا للتَّدخلات الإلهيَّة والميتافيزيقيَّة.

كما انتهت أيضًا هذه الدراسة إلى أنَّ الفلاسفة الماديّين -بشكل عام- يرون أنَّ الموت هو نهاية الوجود الماديّ، وهو المُكوّن الأساس للإنسان، فلا وجود سوى الوجود الماديّ، إذن فلا وجودَ رُوحي هناك ليسـتمر بعد الموت، وأنَّ الوعيَ هو مجرَّد وظيفـة دماغيَّة، وعندما يموت الدّماغ، يتوقَّف الوعيُ بشـكل نهائيّ. فالموت هو نهاية العمليَّات البيولوجيَّة في الجسـم البشري. ومن ثمَّ، فإنَّ الخوف من الموت لا مُبرّر له؛ حيثُ إنَّ الموت لا يعني شـيئًا للأحياء؛ لأنَّ الموت هو نهاية الوعي، ولا يعني شيئًا للأموات لأنَّهم بلا وعي.

وأخـيرًا، بينما حاول الماديُّون -في كل العصور- ربط مذهبهم بالعلم ربطًا نهائيًّا، مؤكدين على أنَّـه لا مجال للبحث في أيّ موضوع خارج العلم الطَّبيعي؛ إذ لا يوجد خارج الطَّبيعة شيء، إلَّا أنَّ العلم الحديث أثبت زيف مزاعمهـم؛ حيثُ دخل العلمُ في القرن العشرين بالمادَّة مجالات أبعد ما تكون عن مادَّة الأمس المألوفة؛ إذ حوَّلت نسبية (أينشتاين- Einstein) المادَّة إلى طاقة، أي إلى شيء لا كتلـةَ له، ولا يحتوي على مادة. كما أثبتت نظرية الكوانتم - Quantum احتياج كل ظاهرة دقيقة إلى "عامل مرجّح" يُحقّق احتمالاً مُعيَّنًا في كل حالةٍ، بحيثُ تتماشى مع الحتميَّة الفيزيائيَّـة في العـالم المرصود. ونزع العلم الحديث المَنزع نفسـه في علـوم الكون في مجال الفيزياء، وثورتيّ البيولوجيا الجزئيَّة والوعي الإنسانيّ في مجالي البيولوجيا وعلم النفس ما تنوء بذكر تفاصيله هذه الورقة البحثيَّة ويحتاج إلى بحثٍ مُستقلٍّ وخاص به.

قَائِمَةُ المَصَادِرِ والمَرَاجِعِ

١. ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق أو كتاب الطهارة في تهذيب الأخلاق، تحـ. السيد حسين المؤمني، المعهد العالي للعلوم والثقافة الإسلامية- مركز إحياء التراث الإسلامي، طهران، ط١، ٢٠١٦م.

٢. أبيقور: الرسائل والحكم، ترجـ. جلال الدين سعيد، الدار العربية للكتاب، لا م، لا ط، ١٩٩١م.

٣. أحمد عبد الحليم عطية: فلسفة فيورباخ، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، لا ط، ١٩٨٩م.

٤. أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (١١١)، ١٩٨٧.

٥. الراغب الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا ط، ١٩٨٣م.

٦. أبو الفتح الشهرستاني: الملل والنحل، تحـ. عبد اللطيف العبد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٧٧م.

٧. إمام عبد الفتاح إمام: توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، لا ط، لا ت.

٨. برتراند رسل: محاورات مع برتراند رسل، ترجـ. محمد عبد الله الشفقي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، لا ط، ١٩٦١م.

٩. _____: الدين والعلم، تر. رمسيس عوض، دار الهلال، القاهرة، لا ط، ١٩٩٦م.

١٠. جاك شورون: الموت في الفكر الغربي، تر. كامل يوسف حسين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل ١٩٨٤.

١١. جورج سارتون: تاريخ العلم، ترجـ. محمد خلف الله وآخرون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، لا ط، ٢٠١٣م.

١٢. جوناثان ري، وج. أو. أرمسون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجـ. فؤاد كامل وآخرون،

المركز القومي للترجمة، القاهرة، لا ط، ٢٠١٣.
١٣. ريتشارد شاخت: رواد الفلسفة الحديثة، ترجـ. أحمد حمدي محمود، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، لا ط، ١٩٩٣م.
١٤. سوزان بلاكمور: لغز الوعي- حوارات حول الوعي، ترجـ. عمرو شريف، نيو بوك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٨.
١٥. عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٣، ٢٠٠٠م.
١٦. عمرو شريف: أنا تتحدث عن نفسها، نيو بوك للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٨، ٢٠١٨م.
١٧. فيليب ويلرايت: هيراقليطس، ترجـ. عبده الراجحي، دار المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٦٩م.
١٨. لودفيج فويرباخ: أفكار حول الموت والأزلية، ترجـ. وتعـ. نبيل فياض وجورج برشين، دار الرافدين، بيروت، لا ط، ٢٠١٧م.
١٩. مارتن هيدجر: الوجود والموجود، دار التنوير، بيروت، لا ط، ٢٠٠٩م.
٢٠. محمد عثمان الخشت: الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، لا ط، ١٩٩٧م.
٢١. محمد عمارة: تقديم كتاب: في الرد على الماديين للعلامة محمد فريد وجدي، هدية مجلة الأزهر، لا ط، ١٤٣٤ه/ ٢٠١٣م.
٢٢. محمد غلاب: الفلسفة الاغريقية، لا د، القاهرة، ط١، ١٩٣٨م.
٢٣. محمد فتح على خاني: فلسفة الدين عند هيوم، ترجـ. حيدر نجف، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، لا ط، ٢٠١٦م.
٢٤. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، لا ط، ١٩٩٨م.
٢٥. مصطفى حلمي: الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة، دار الدعوة، الإسكندرية، ط٣، ١٩٨٦م.
٢٦. نبيل علي صالح: الماديَّة- مُقَارَبَةٌ نَقْدِيَّةٌ فِ الْبِنْيَةِ والمنْهَج-، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، -، ط١، ١٤٣٩ هـ/٢٠١٨ م

٢٧. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لا ط، لا ت.

28. Etienne De Condillac, Essay on the Origin of Human Knowledge, Translated and Edited by Hans Aarsleff, Cambridge Texts in The History of Philosophy, Cambridge Philosophy Press, 2001.

29. Spinoza, Ethics, in complete Works, Translation by Samuel Shirley, Edited with Introduction and Noted by Michael Morgan, Hackett Publishing Company: Indianapolis/Cambridge, 2002.